القراءة التصويرية عند شارل بلاّ وبلاغة الجاحظ، من خلال كتابه «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء»

The pictorial reading of Charles Title in English; times new roman; size 12 Bella and the rhetoric of Al-Jahiz, through his book 'Al-Jahiz in Basra, Baghdad and Samarra'; interline 1; small letters

طالب دكتوراه/ كحلي رابح
أ.د دردار بشير

- قسم اللغة والأدب العربي –جامعة الونشريسي تيسمسيلت – تيسمسيلت (الجزائر)
- **مخبر الدراسات النقدية والأدبية، جامعة تيسمسيلت.**

kahli.rabah@cuniv-tissemsilt.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/06/22 تاريخ النشر: 2021/11/04

- **ملخص:**

يروم هذا البحث رصد جهود (شارل بلاّ) المتعلقة بالموروث الجاحظي تحقيقا وتأليفا وترجمة، فقد كرس بلاّ حياته للجاحظ، وقد كان الجاحظ نتاج صاف للبصرة التي ولد فيها وتعلم، ثم بغداد التي صنع فيها إرثا أدبيا ضخما، وفيها اكتمل عقله ونضج، كما تطرق الباحث إلى بواعث تأثير البيئة في الجاحظ في كتابه الموسوم بـ: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، الذي ترجمه إبراهيم الكيلاني، كما يهدف هذا البحث إلى استجلاء العوامل التي جعلت شارل بلاّ يقدم هذه الخدمة الجليلة لبلاغة الجاحظ.

الكلمات المفتاحية: شارل بيلا؛ البلاغة؛ الجاحظ؛ البيان؛ البصرة.

Abstract:

This research aims to monitor the efforts of (Charles Bella) related to the legacy of Al-Jahzi to investigate, compose and translate. To the motives of the impact of the environment on al-Jahiz in his book entitled: al-Jahiz in Basra, Baghdad and Samarra, translated by Ibrahim al-Kilani, and this research aims to elucidate the factors that made Charles Ball provide this reverent service to al-Jahiz's rhetoric.

key words: Charles Bella; Al-Jahzi; Basra; book; rhetoric;

مقدمة:

يعتبر شارل بلاّ المستشرق الأول الذي كانت له دراسات مهمّة في مجال البحوث الأدبيّة أو شبه الأدبيّة، ومشروع كتابه الموسوم بـ: «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء» وكذلك «الوسط البصري ودوره في تكوين الجاحظ» يعتبر بحق مشروعا متكامل البنيان، فكان الجاحظ ملهما «لبلاّ»، فقد عرض في كتاباته لحياة الجاحظ وأبرز المحطات التي توقف عندها وقد ترجمه الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى اللغة العربية، وقدم خدمة عظيمة للتراث العربي، وقد نقل «بلاّ» تأثير البيئة المتمثلة في البصرة وبغداد وسامراء، فما هي دلالة كل هذه البيئات على الجاحظ وأدبه، وخاصة البصرة؟ ولماذا توقف بلاّ في البصرة كثيرا؟ وما هي دلالات اعتناء بلاّ بأدب الجاحظ.

عناية بلاّ بالجاحظ وبنثره تتطلب منا وقفات متتالية لنرصد مجهوداته في كشف أسراره، وكما هو معروف أن بلاّ له السبق –تأليفا- في نشر تراث الجاحظ بعد المحقق عبد السلام محمد هارون»[1] الذي كانت له جهود سباقة وكبيرة في تحقيق وتخريج التراث الجاحظي خاصة في «البيان والتبيين»، كما عُرف عن بلاّ ولعه بالعلم خاصة اللغة العربية والتراث العربي بصفة خاصة، لقد تخصص في البربرية إلاّ أنه اتجه للغة العربية، وقد كان له طلبة كثيرون يدرسون على يديه في السربون عند عودته لأوربا، وقد قيل عنه صانع الدكاترة لكثرة من تخرج على يديه راجعين بشهادة الدكتوراه وبحب العلم والبحث، كما أنه رفض التقاعد وظل في عطاء حتى وافته المنية ولم يتوقف عن التعليم والبحث والتأليف، «ولد شارل بلاّ في الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول) 1914 في سوق أهراس بالجزائر وبها درس، حتى انتهى به المطاف وهو في بلده، ومع ذلك كان الطلبة والباحثون لا ينقطعون عنه، ودائما هم في تواصل معه.

شارل بيلا وآداب العرب:

كان بلاّ من المستشرقين المهتمين بالمسلمين وتراثهم وكان أفضلهم الماماً بآداب العرب وبالموروث الجاحظي خصوصا «فلقد بلغ رصيده العلمي 562 ما بين كتاب وبحث موضوع أو محقق أو مترجم، وساهم في إعداد القاموس ذي اللغات الثلاث العربية والفرنسية والإنجليزية الذي كان يشرف عليه قبله (ريجيس بلاشير) 1900- 1973م»[2]، فجهوده جبارة وكبيرة في مختلف الأماكن التي حل بها، حتى انتهى به المطاف وهو في بلده، ومع ذلك كان الطلبة والباحثون لا ينقطعون عنه، ودائما هم في تواصل معه.

في كتاب الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء:

من خلال اطلاعنا على كتاب (الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء) لشارل بلاّ نجده مؤلفا طريفا، فبلاّ قد كرّس أبحاثه للجاحظ واهتم أيما اهتمام به وأعطاه الحيز الكبير في مؤلفاته، ولم يخف علينا ولعه الشديد بأدب الجاحظ، كما «اهتم شارل بلاّ بدراسة الوسط البصري من الناحية الاجتماعية والأدبية والفكرية والاقتصادية، وحرص على إبراز التفاعلات التي أسهمت في

تكوين شخصية الجاحظ وتطوير أفكاره، وقد قال في البداية أنه سيقوم بالبحث في الحالة الفكرية والدينية والسياسية في عصر الجاحظ، ومن جهة ثانية سيعمل على التنقيب في ظروف حياته الخاصة»[3]، من هنا ندرك أن اهتمام بلاّ بالجاحظ قد أثرى الساحة الأدبية، وقد استطاع فك عدة ألغاز ورموز من بيئة أبي عثمان بإعطائنا صورة كبيرة وواضحة عن حياة أبي عثمان.

وفي البداية يعترف «بقدرات الجاحظ النثرية وكذلك ما تميز به عن سابقيه ولاحقيه في هذا الفن وها هو يقول: وجب علينا القول بوضوح: أنه ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ»[4]، وهذا الذي عُرف به من خلال مسيرته التأليفية التي خاضها طوال حياته.

بيلا والجاحظ:

وقد كانت أولوية الجاحظ في مؤلفاته التركيز على القارئ، من خلال محاصرة المتلقي ووضعه في أحسن رواق ليشاركه فنيات نثره المتداخلة «وقد استطاع مع ذلك في كثير من مؤلفاته أن يحتفظ باهتمام القارئ إلى حد يجعل جميع آثاره تقرأ بلذة على الرغم من الإعادات –التي حاول تجنبها– وعلى الرغم من فقدان النهج المنطقي وتسلسل الأفكار والاستطرادات التي لا تحصى والتي تعطي أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين، هذا إذا باشرنا قراءته بفكرة مسبقة حسنة، إن هذا الأسلوب -البسيط في حد ذاته – والذي عقّده انتقاء الألفاظ والإشارات إلى قضايا خفية علينا يخفي تحته أفكارا في تجدد دائم تستمد مادتها من الدين والعلوم العربية ومن الوسط البصري الغني المتنوع»[5]، ومع كل هذا الاهتمام بالقارئ أو المتلقي نجد الجاحظ يُكثر من الاستطرادات، وهذا ما عبر عنه بلاّ بفقدان النهج المنطقي.

الاستطراد عند الجاحظ:

هذا الاستطراد في مؤلفات الجاحظ هو بكل تأكيد يدل على أسلوب خاص تميز به، هذه الاستطرادات لها طابع خاص كما يقول بلاّ، حتى أننا نجد محمد العمري في كتابه (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) قد تحدث عن الاستطرادات الموجودة في مؤلفات الجاحظ وأطال فيها «لهذا فقد بدا كتاب (البيان والتبيين) لكثير من الدارسين مجموعة من المعارف المحصّلة نتيجة الاستطرادات، أي أنه ليس ذا استراتيجية محددة ومضبوطة، ومن هنا وجد فيه كل متحدث مجالا للقول»[6]، فعدم ضبطه وقِصر إستراتيجيته كان نتيجة الاستطراد الذي عُرف به الجاحظ.

ولهذا وجد كل واحد فجوة للدخول إلى تلك المعارف «من الزاوية التي تشغل باله وتخدم اختصاصه، أو يختزله في مجموعة من المصطلحات النقدية والبلاغية التي لا يربط بينها تصور نظري أو إستراتيجية»[7] هذه المآخذات على مؤلفاته خاصة (البيان والتبيين)، فالإجحاف الذي صدر من كثير خاصة النقاد المعاصرين، هذا دليل على أن الجاحظ تعرض للإهمال والتقصير كثيرا، وهي منقصة في حق البيان والتبيين الذي قيل فيه أنه مجرد مختارات.

والحق –كما هو عند المنصفين- أن كتب الجاحظ تعد من أمهات الكتب الأدبية ومدار الأدب والعلم يدور حولها، وكذلك هي من كتب أصول الأدب، التي لا يستغني عليها باحث، والقول بأنها مختارات أدبية هذا حيدٌ عن الصواب، فقول محمد العمري يعطينا إشارات واضحة تدل على اختلاف النقاد حول الكتاب.

والسؤال المطروح لماذا صحبت مؤلفات الجاحظ هذه الضجة من التساؤلات والتهكمات، وهل النظر إلى زاوية واحدة من زوايا كتاباته يُعد حكما صائبا؟ يقول بلاّ: «ويجب علينا كي نحكم على الجاحظ بصورة مجردة ومعقولة ألاّ نمر عليه بصورة سطحية وألاّ ننظر إليه من خلال الكتب المسلية التي برز من خلالها الجاحظ وصورة الجاحظ العادية أبعد من أن تكون صورة الكاتب الإنسي»[8] فصورة الجاحظ الإنسي تتقاطع مع صورته الساخرة وتتعدد الصور في كتاباته وفي هذا المقام يوصي بلاّ وهو من العارفين بأبي عثمان من خلال تتبعه له في كل المراحل التي مر بها من البصرة إلى بغداد إلى سامراء.

وفي هذا المقام يرى بلاّ أن من العوائق التي جعلت آثار الجاحظ تتعسر على القارئ هو أنه يتطلب منه فهما خاصا وشروحات متعددة، كما يرى أن من أهم الأسباب التي صعّبت فهمه لدى الدارسين و«هو أنه يستعمل اصطلاحات تجهلها المعاجم، ويرمز إلى أمور يغيب عنا معناها العميق، ويمكننا ولا ريب تعميم هذا القول على كثيرين من كتاب العرب، ويبدو أن في آثار الجاحظ التي تتطلب أحيانا شروحا من المعاصرين، غموضا استثنائيا بالنسبة لنا»[9]، أما بعض المصطلحات الموجودة في مؤلفات الجاحظ فهي مفقودة في المعاجم.

وهذا يتطلب من الباحثين جهودا كبيرة حتى تغيب تلك النظرة السطحية لكتبه، هذا ما جعل الكثير من النقاد وغيرهم «يتصورون الجاحظ تصورا غير ملائم»[10]، هذا السبب جعل كثيرا من المتأخرين يطعنون في أبي عثمان ويغمزوه ويلمزوه حتى في شخصه، وما حيك حوله من قصص وخرافات حول جنسه ونسبه، ثم ينتقل بلاّ إلى قضية التأليف والكتابة وكيف تحسنت طبعات الكتب من سنة إلى أخرى، وكيف ازدهر إخراج الكتب، فمن خلال المقارنة بين نسختين لكتاب البخلاء يظهر ذاك التفاوت بين طبعتين «وما أروع ذاك التقدم الذي تحقق مثلا في ميدان فهم نص كتاب البخلاء بين طبعة فان فلوتن سنة 1900م وطبعة طه الحاجري سنة 1948م»[11]، ففي الطبعة الأخيرة لكتاب البخلاء يرى بلاّ أنه قد تحقق تقدم كبير في فهم نص الكتاب، هذا فيما يخص كتاب البخلاء.

البيئة في تكوين شخصية الجاحظ:

كما كان لبلاّ حديثا حول تأثير البيئة في شخصية المؤلف، هذا التأثر لم يكن من فراغ بل هو شكل من الأشكال التي «لا تعدو أن تكون إشارات عامة متفرقة، إلى تأثر الإنسان بالبيئة الجغرافية

التي يعيش وسطها، لكنها في نفس الوقت إشارات تتميز بطابع العمق والتركيز ووضوح الفكرة أو الأفكار في ذهن صاحبها»[12]، فالبيئة الجغرافية لها تأثير كبير في من هو ساكن بين أحضانها، من هنا أدرك بلاّ هذه القضية.

فالتفاوت في الأقاليم التي سكنها الجاحظ (البصرة وبغداد وسامراء مكنته من فهم ما يدور حوله، وهذا الذي يذهب إليه إدريس بلمليح كذلك فيما يسمى الجغرافيا البشرية بحيث يقول بلمليح: «نعتقد مع شارل بلاّ بأن الجاحظ كشف عن قوانين في الجغرافية البشرية، أو أنه عالم من علمائها المتقدمين، بكل ما تعنيه كلمة عالم من دقة في البحث وإلمام تام بالموضوع»[13]، فهو يعترف بأن بلاّ أقر للجاحظ سبقه في استكشاف الجغرافيا البشرية وأنه عالم من علماءها، ولابد أن نوضح بعض ما هو غامض وخفي في مؤلفات الجاحظ مثل (مناقب الترك) و(كتاب التاج في أخلاق الملوك) وغيرها من العناوين التي تحمل عدة تأويلات في عناوينها قد تعكس الوضع السياسي السائد آنذاك.

هذا النسيج الثقافي المتشابك كان له أثر كبير على أدب الجاحظ، «ونجد في أحوال أخرى الهدف السياسي أكثر وضوحا وبخاصة في رسالة (مناقب الترك) ويجب علينا في هذه الأحوال عدم التعميم والمبالغة في القياس، ومن الجائز أن نتبين في أغلب مؤلفات الجاحظ سببا آخر يتعدى الميل البسيط إلى إظهار أفكاره، وتظهر هذه الخاصية حتى في كتبه التافهة»[14]، وفي خضم هذه الخصومات السياسية والثقافية نجد الجاحظ يُبعد الشبهة عن كتبه وعن شخصه.

فذكر مناقب الترك في كتاباته لها أكثر من دلالة على وجود «التنازع الذي شغل الجاحظ في أماكن كثيرة، لقد جعل الجاحظ الخصومة أو الوفاق الخصم أكبر من أن يكون ظاهرة موضعية»[15]، فما كان يدور في بيئة الجاحظ هو حاضنة للخصومات والمتناقضات، بيئة تعكس تلك التحالفات بين أصحاب السياسة وشيوخ الفرق المختلفة من جهمية ومعتزلة وخوارج وشعوبية «وقد عبر الجاحظ فيما أظن عن جو ثقافي مختلط لا يخلو من قسوة وتموج وتدافع»[16]، فمؤلفاته تدل على مرحلة ليست كباقي المراحل، والتي صنعت فيما بعد الجاحظ وأدبه.

وقد صدق شارل بلاّ حين قال أن هذا الجو المختلط يحمل الكثير من التدافع والقسوة والغموض وهذا الرأي يتفق مع ما قاله مصطفى ناصف بحيث يقول: «قرأنا نماذج الجاحظ وتعليقاته الواضحة حينا والغامضة حينا»[17]، فهو يحب تجريب الحرية -وحريته على وجه الخصوص- في كتاباته، فالحرية ملازمة له وبطواعية يجرها خلفه، وفي هذا السياق تبدو الحرية بالنسبة للجاحظ كالماء للسمك لا يعيش بلا ماء، هي بالنسبة له كاستنشاقٍ لنسيمِ الصباح وهي تعبير عن عقيدة اعتزالية ترى في الحرية مصدرا من مصادرها وأصولها وإعطاء الحرية للعقل

ليسبح بعيدا «كان الجاحظ يجرب فكرة الحرية دائما، وفي ظل هذه الفكرة يمكن أن نقبل مفارقات الجاحظ الملهمة»[18]، هذا الجانب الخفي في كتابات الجاحظ يحمل من المفارقات الكثير، جعلت منه ملهما من عالم آخر أو معلم عقل وأدب، وهو طريق حاول مصطفى ناصف سلوكه ليكتشف مملكة الجاحظ عن طريق استنطاق نثر الجاحظ ويمس لطائفاً خفيت عن الكثير.

وهنا يتساءل شارل بلاّ عن الآثار الأدبية للجاحظ، وإجراء تحليل عميق لعقيدته ولملاحظاته ولأسلوبه، «وهل من الملائم في الوضع الحالي للدراسات الجاحظية أن نفكر بدراسات شاملة لآثار الجاحظ الأدبية، وتحليل أفكاره وعقيدته الاعتزالية، ونظراته وملاحظاته والحكم على طريقته في التأليف وأسلوبه وفنه وتهكمه»[19]، ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن وضع مؤلفات الجاحظ في سياقها الذي أُريد لها أن تكون فيه، وكذلك إجراء تحليل لأفكاره حتى نفك المتناقضات التي تسللت لكتاباته ونفهم سياق كتاباته.

كما يتعين علينا دراسة الحالة الدينية والاجتماعية والسياسية زمن الجاحظ، فلا نكتفي بالدراسة النسقية لأدبه بل «إننا لا نستطيع دراسة الجاحظ من (الداخل) بل من الجائز دراسته من (الخارج) على اعتبار أن أغلب آثاره هي أبعد من أن تكون نتيجة هواية كاتب واع لمواهبه، بل هي مشروطة بحوادث ذات طبائع متنوعة، فيجب إذن التفتيش عن الفرصة والدوافع في الحالة الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية السائدة حينئذ، كما يجب التنقيب في ظروف حياته الخاصة التي دفعته إلى كتابة رسالة في الجد والهزل، والفارق بين العداوة والحسد، وعندها يصبح التوقيت الزمني لآثاره أمرا لا غنى عنه»[20]، فالتنقيب في بيئة الجاحظ قد يحيلنا إلى تراكمات كثيرة قد نحصل بها على ما نريد.

من هنا ندرك أهمية تأثير الحياة الخاصة للجاحظ على مؤلفاته ولكتاباته بشكل عام، فالزمن كما هم معلوم له تأثير من الناحية الإنتاجية للكاتب، كما أن تنوع المحطات التي زارها الجاحظ في العراق كان لها تأثير قوي وظاهر فيه، ومن بين البصرة وبغداد وسامراء نجد البصرة لها وقع خاص عليه وعلى ملكته الأدبية «إن الجاحظ في الواقع نتاجٌ صافٍ للبصرة حيث قضى فيها القسم الأوفى من حياته، ولكن نبتته لم تؤت ثمارها إلاّ في بغداد، فالبعد عن الديار والغربة شهرته مثل أبو نواس، والكاتب سهل بن هارون، والأصمعي»[21]، فالبصرة تمثل النشأة وبغداد تمثل القمر ليلة البدر للجاحظ لأسباب كثيرة أبرزها الجو العلمي في بغداد وكثرة المؤلفات وتفتحها على باقي الدول المجاورة كالهند وفارس وغيرها، هذا المنعطف الجديد ساهم في ترقية فكر الجاحظ وأمده بقوى خارقة أهلته ليصبح الأديب والمفكر والكاتب والعالم والمعلم.

وبالرجوع إلى ما كتبه بلاّ وتأثير البيئة في الجاحظ يقول محمد عبد البشير: «والحاصل أن شارل بلاّ لم يخرج عن هذا النسق التأليفي، ففي كتابه: «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء»

نلمس بوضوح النقد التاريخي اللانسوني، حيث تنطلق قراءة شارل بلاّ للجاحظ - بوصفها مقاربة سياقية- من نقطة الاهتمام بما حول النص الجاحظي كالحقبة التاريخية التي عاش فيها ومالها من أثر فيه»[22]، إذن قراءة بلاّ للجاحظ هي مقاربة سياقية بحتة.

من جانب آخر نلحظ أن شارل بلا قد اهتم بالسياق الخارجي وركز عليه، هذا القارئ لم يهتم به شارل بلاّ و«الفاحص لقراءة بلاّ يلحظ أنها تغيب كلياً القارئ من حيث هو أداة وطرف أساسٌ في إنتاج المعنى الذي يحمله النص، فهي تراهن على المعنى الواحد بدل المعنى المتعدد والمتنوع مع الاحتكام إلى السياق والظروف المحيطة بمقولات الجاحظ والتي تعد –الأصل- حسبه في إدراك القصد الجاحظي»[23]، وفي هذا السياق ندرك أن قراءة بلاّ لأدب أبي عثمان غيّبت القارئ وهو الأساس في العملية الإنتاجية للمعنى، فهذه القراءة تستند على السياق والظروف المحيطة التي نشأت فيها مقولات الجاحظ.

فإدراكنا لهذا يجعلنا نفهم مقاصد أبي عثمان، فبلاّ ركز على عامل البيئة والظروف التي لامست حياة الجاحظ فاشتغل عليها، في حين لا نجده يهتم بالقارئ كثيرا، من جانب آخر يرصد بلاّ قضية أخرى كان خاض فيها الكثير من الدارسين ألا وهي (الاستطراد) والذي هو من صلب البلاغة وسمة من سماتها، وكذلك (أفق الانتظار)، وهنا يرى محمد عبد البشير في كتابه الأدب العربي وإشكالات التأويل حيث يقول: «كما يؤسس الباحث بيلا فهما مغايرا لمقولات الاستطراد عند الجاحظ، حيث يتصور أن التفكك والتكرار هما مصدر روعة كتب الجاحظ»[24]، فالاستطراد جمالية من جماليات أسلوب الجاحظ، وروعة مقالات الجاحظ هي في تفكك نصوصه وتكرارها كما يرى بلاّ.

ويدعونا محمد عبد البشير «إلى قراءة استطرادات الجاحظ وتذوقها في سياق المقصدية الأدبية التي تتوخاها كتاباته، وهي دعوة صريحة منه للانشغال باستطرادات أبي عثمان، «قال ابن أبي الحديد: الاستطراد، هو أن تخرج بعد تمهيد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تريد ذكره، فتذكره وكأنك غير قاصده بالذات، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض من غير قصد، ثم تدعه وتتركه وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده كالمقبل عليه وكالملغي لما استطردت بذكره»[25]، هذا الخروج والدخول عبر منعطفات ضيقة ووعرة وصعبة هي التي تعجب الجاحظ وتنشطه للكتابة، وتجعله يكتب ولا يمل، وشارل بيلا بدوره يحتضن هذا الاستطراد من الجاحظ، ويعطي نصيحة للدارسين بصفة عامة والمتلقي بصفة خاصة العودة لهذا الفن البلاغي.

شارل بيلا والبيان عند الجاحظ:

ومن البديهي أن مقدرة الجاحظ البيانية تجعله في غنى عن إتباع أي نظام كان، «فهو إذن لا يشعر بحاجة إلى احترام نظام هو في نظرنا منطقي على الرغم من أنه يحاول أحيانا في كتابه

(البخلاء) الخضوع لنهج مسبق معتذرا عن استطراداته»[26]، هذا الاعتذار –من الجاحظ- الذي أورده بلاّ قد يكون نسفا لما سبق ويؤكد أن الجاحظ لم يتبع نظاما صحيحا، ولكن هذا لم يمنعه في (البخلاء) من الالتزام بمنهج معين.

فمن الواضح إذن أن شارل بلاّ ركّز على (البيان والتبيين) و(الحيوان) ونظر في الغايات التي تحكم بنيتها وها هو يقول: «كما أن النظر في كتب الجاحظ وخاصة منها (البيان والتبيين) و(البخلاء) باعتبار الغايات تتحكم في بنيتها»[27]، فالنظرة السطحية لا تكفي لقراءة تراث الجاحظ لابد من فهم الغايات التي تتوقف عليها المقالات الجاحظية.

كما يرى بلاّ أن هناك أسبابا كثيرة في صياغة أدب الجاحظ، من أهمها الموروث العقلي الذي أعطاه «الذكاء الحاد الفريد من نوعه عند الجاحظ وميله الوراثي للتفكير العقلي مع أنه سعى إلى تحليل وتأكيد تأثير البصرة في فكر الجاحظ وأن عقل الجاحظ صيغ لا شعوريا انطلاقا من هذا التأثير»[28]، فقد أقر بلاّ بقوة الجاحظ واعترافه بقدراته العقلية وهذا ما يؤكد لنا تأثير البيئة الحاضنة في شخصيته.

فتلك المرحلة وما تحمله من غنية ووفرة أدبية «فإننا نشعر بأن ما قاله الجاحظ وما رواه كان يعرفه تماما، وأن معاصريه لم يكونوا بحاجة للشروح وأن إشاراته الخفية كانت تفهم بيسر، كما أن استشهاداته كانت في غنى عن الإيضاح»[29]، بل لا يحتاج القارئ للجاحظ للشرح والتيسير لأن كتاباته في تلك المرحلة تبدو سهلة ومتاحة للجميع، «وهكذا فان الجاحظ وإن لم يشأ كأستاذه الأعمش تعمد الغموض»[30]، فهو كان عكس أستاذه الأعمش الذي غلب على آثاره الغموض ولكن الجاحظ كان تلميذا مغايرا تماما لشيخه.

ورغم كل هذا نجد بلاّ يطرح عدة أسئلة قد تجد الإجابة عنده: «ونحن اليوم إزاء مقاطع مغلقة بسدّ محكم، سواء بأضرار يصعب تعويضها أم لأن المؤلف يستعمل اصطلاحات تجهلها المعاجم ويرمز إلى أمور يغيب عنا معناها العميق»[31]، ففي كتابات الجاحظ نجد مقاطع عميقة منغلقة يصعب فهمها ويزيد تعسر إيجاد مفرداتها في المعاجم، وهو سؤال وجيه من بلاّ عن هذه الجزئية.

الخطابة عند الجاحظ:

هذه المفردات المنتقاة من طرف الجاحظ تدلنا دلالة واضحة على اعتناء «الجاحظ لفصاحة الكلم والتعبير الفني قد دفعاه إلى تكديس الاستشهادات سواء منها المستعارة من التراث العربي، المكتوب منه والشفهي، أم من مذكراته الخاصة، ولكن ولعه بالخطباء المصاقع يظهر بوضوح في كتاب البيان والتبيين الذي أراد أن يجعل منه مجموعة للبيان العربي منذ عصور الجاهلية، وقد استمد عند تأليف هذا الكتاب جزءا من معلوماته من خارج البصرة، واستعان

عدة مرات بمصادر مكتوبة كآثار أبي الحسن المدايني»[32]، وبالتالي فالبيان والتبيين هو مجموعة من مختارات البيان العربي بداية من العصر الجاهلي.

وما ورد في كتاب البيان والتبيين هو مجموعة من النثر والشعر والخطابة وكل ما يتعلق بها «ويذكر الجاحظ دون تمييز كلمات الخطيب والبليغ والبيّن، وصاحب البيان للدلالة على الشخص الذي ألف جملا بليغة، أو روى قصصا بصورة فنية، أو خطبة بليغة، وقد استعمل كلمة خطيب للدلالة على خطيب المساجد»[33]، وهذه شروط أوردها التي يجب أن تتوفر في الخطيب.

وفي السياق نفسه ذكر أن من السلطات المركزية كان لها اليد العليا في التعيينات و«كان تعيين الخطيب في الولايات من اختصاص الحاكم مثل السلطة المركزية»[34]، ومنه يظهر لنا ما للخطابة من أهمية كبيرة لدى السلطات في القرن الثاني ولذا كان تعيين الخطباء من اختصاصهم لأنه هو لسانهم في المجامع والمساجد والتجمعات.

ومن الخطباء نجد القضاة والكبراء «ولعل الخطب التي كان يلقيها القضاة هي من النوع الذي ذكره الجاحظ عند كلامه عن الخطبة قال: (كان سوار بن عبد الله أول تميمي خطب على منبر البصرة، ثم خطب عبيد الله بن الحسن، وولي منبر البصرة أربعة من القضاة فكانوا قضاة أمراء: بلال بن أبي بردة، وسوار، وعبيد الله، وأحمد بن أبي رباح)»[35]، فالخطابة مقتصرة على الأمراء والقضاة الذين يمثلون طبقة معينة ولم تكن مهيأة للجميع، فهي موهبة لا يحسنها أي أحد، التي تلقى في مناسبات معينة، «ويظهر أن وجوب إلقاء خطبة الجمعة الرسمية ذات الطابع الديني أدى إلى ازدهار نوع أدبي يفرض في الخطيب وجود مواهب خطابية»[36]، ولأهميتها أوردها الجاحظ لما فيها من فصاحة وبلاغة عالية.

وقد عرف العرب عدة خطب واشتهرت تلك المرحلة بعدد من الخطباء الأفذاذ الذين كانت لهم بصمة حتى زمننا هذا، وخطبهم مبثوثة في كتب الأدب ولعل خطبة (البتراء) أصح هذه الخطب، وقد رواها الجاحظ عن أبي الحسن المداييني، ولما توفي يزيد بن معاوية صعد عبيد الله بن زياد المنبر ليبلغ الناس خبر موت يزيد وتثبيت تأميره عليهم وهي خطبة ذات قيمة في الدلالة على أخلاق الناس في ذلك الزمن وهي: (يا أهل البصرة، أنسبوني فو الله ما مهاجر أبي إلا إليكم، ولا مولدي إلا فيكم، وما أنا إلاّ رجل إليكم...»[37]، ولقيمتها أوردها أبي عثمان في (البيان والتبيين) لأنها من أوائل عيون الأدب العربي، ولكن لما كثر الشعراء وأصبح الشعر للمكاسب والمثالب.

أصبح ينظر للخطابة كنموذج راق يقول بلاّ: «فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذلك قال الأول: (الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدّني)»[38]، فأصبح الخطيب يناطح الشاعر بل ويتفوق عليه لما تميز به الخطيب من بلاغة وقوة كبيرة في الإقناع.

الخاتمة:

نستطيع القول في خاتمة البحث أن قراءة شارل بلاّ قدمت لنا مخططا شاملا مفصلا عن حياة الجاحظ وبيئته التي كان فيها، مسافرا من بلد لآخر، هذه الرحلات عبر البيئات العراقية المختلفة والمتباينة جعلت بلاّ محققا في أدب الجاحظ، خاصة في البصرة التي نشأ فيها، ثم ينتقل إلى بغداد ويكتسب ثقافة جديدة وعلوما جديدة، كما أن بلاّ أشاد بدور البصرة في التأثير على حياة الجاحظ، وتأثير الوسط السياسي والفكري والديني والاجتماعي في تكوين شخصيته.

المصادر والمراجع:

1. عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ، دار عالم الكتب، للنشر والتوزيع، الأردن، 2015.
2. شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ت: إبراهيم الكيلاني، المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع سوريا. ب ت.
3. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010.
4. مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990.
5. محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، دراسات إستشراقية، العدد التاسع، خريف 2016.
6. سيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، طهران ج:1، ط1، 1968م، 1961 .

[1]- عبد السلام هارون مؤرخ ومحقق مصري، وعميد كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، وأحد أشهر محققي التراث العربي في القرن العشرين.

[2]- المرجع نفسه.

[3]- عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ، دار عالم الكتب، للنشر والتوزيع، الأردن، 2015، ص: 36.

[4]- شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ت: إبراهيم الكيلاني، المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع سوريا، 1961 ، ص:2

[5]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:4

[6]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، ص:189.
[7]- المرجع السابق: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 190.
[8]- بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص: 5
[9]- المرجع نفسه، ص: 8
[10]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990، عدد:218، ص:14.
[11]- المرجع السابق، بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 8
[12]- المرجع السابق، ص: 39.
[13]- إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 40.
[14]- المرجع نفسه، ص: 9.
[15]- مصطفى ناصف، محاورات في النثر العربي، ص: 28.
[16]- المرجع نفسه، ص: 28.
[17]- المرجع نفسه، ص: 20.
[18]- مصطفى ناصف، محاورات في النثر العربي، ص: 33.
[19]- بلاّ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 10.
[20]- المرجع السابق، ص: 11.
[21]- ينظر: بلاّ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 12.
[22]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، دراسات إستشراقية، العدد التاسع، خريف 2016، ص: 116
[23]- المرجع السابق، ص: 118
[24]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، ص: 118
[25]- سيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، طهران ج:1، ط1، 1968م، ص: 228.
[26]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 07.
[27]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، ص: 118
[28]- المرجع السابق، ص: 122، وما بعدها
[29]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:07.
[30]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، نقلا عن الجاحظ، ج:01، ص:45، 46.
[31]-المرجع نفسه، ص:08،
[32]- المرجع السابق، ص:167، 168.
[33]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، 168.
[34]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، نقلا عن الجاحظ، 168.
[35]- المرجع نفسه، ص29، نقلا عن: البيان 238/1.

[36]- المرجع السابق، ص، 169.
[37]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 171.
[38]- نفسه، ص: 172. نقلا عن: البيان: 253/1.